انعاش اللغة

ان المهمة الملقاة على عاتق رجال العلم اعظم مما يقوم باعبائه اقطاب السياسة وابطال الحروب ومن شاكلهم ممن لهم ضلع في اعلاء شأن الامة ؛ لأن هؤلاء قد ينهضون أمة الى مستوى السعادة ولكنهم لا يعدمون ذاماً في الحال وذماً في المآل هذا اذا اتيح لهم ان يبلغوها ساحل السلامة ولم يطوحوا بها في مهواة من الدمار والبوار تجعلها كأمس الدابر وفوق هذا فانهم لا يستطيعون احياء أمة الا باماتة غيرها اما الاولون فانهم يبنون لها صروحاً من المجد الشامخ والشرف الباذخ على أسس السلم ودعائم العلم ويتوخون لها اصفى الموارد واقوم المسالك فتحيا ويحيا غيرها معها والفرق بين الفريقين عظيم .

واذا اضفنا الى ذلك ان اللغة نموذج يمثل من الامة حسبها التالد وشرفها الطارف وعنوان يدل على مبلغها من الحضارة والرقي وتاريخ ينطق بمفاخرها اتضحت لنا باجلى وجه منزلة المجامع العلمية ودرجة الاعمال الموكولة الى رجالها .

أبه الغربيون الى مكانة اللغة وتأثيرها في الهيأة الاجتماعية فاخذت كل أمة منهم تفرغ ما في وسعها لاحياء لغتها ونشرها في البلدان القاصية والارجاء النائية فكانت اعظم داعية للفتح وانجح وسيلة للاستعمار فقد كانت تستميل بها الأبصار الى مدنيتها الزاهرة وتسترعي الأسماع الى مآثر ابطالها وانجادها وتستهوي الافئدة الى التشبع بآدابها وعاداتها وكان لها من الاثر في انسلاخ الضعيف من قوميته ونزوعه الى الاندماج في القوي مالم تغن الجيوش الكثيرة العدد والعدد غنائه وما يغنينا عن الأطالة فيه ما نشاهده اليوم في كثير من ابنائنا بعد ان كان آباؤنا بالامس يشاهدونه في ابناء غيرهم من الامم الضعيفة . ولقد اتى على العرب حين من الدهر لم تكن فيه أمة من الامم لتشق غبارهم في العناية بلغتهم حتى بلغت ما بلغته من السعة والاستفاضة بين اقصى الصين والجزائر الخالدة في اسرع من لمح البصر وقد كانت تسير في ذلك العهد مع

(١) الخطاب الذي ألقاه الاستاذ السيد سليم الجندي يوم انتخابه عضواً في المجمع العلمي العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدنية العربيـة جنباً لجنب وكتفاً لكتف وترتقي في معارج الحيـاة على قدمي الحضارة والعلم ٠

ومن رجع بصره الى ما ابقت الايام من التاريخ والفهارس واحاط علماً بما الف فيها من المعاجم والموسوعات وكتب البلاغة والأدب والنحو والصرف والمقصور والممدود والكنايات والاضداد والعروض والقوافي والاشتقاق وآداب الكتاب وتهذيب الالفاظ وما ماثل ذلك مما تتعذر الاحاطة به — علم مبلغ عنايتهم بها واهتمامهم باعلاء شأنها ٠

ثم لما دالت الأيام بالعرب وقلب لهم الدهر ظهر المجن اخـذت في الانحطاط تبعاً لهم لأن اللغة من الامة بمنزلة الظل من الشخص تتبعها في الامتداد والارتقاء واضدادهما وقد زادها ضغثاً على إبالة تغلب الأعاجم على العرب قروناً كثيرة فسهل ذلك تسرب المعجمة والرطانة اليها حتى افسدت جوهرها وقطعت اوصالها وذهبت برونقها ونضرتها وضربت فيها بفرق ذي اشب ثم اصبحت على تعاقب الايام غريبة في اهلها وآل امرها الى ما نعلم ونرى ، غير انها لم تعدم في كل عصر ومصر من يعنى بتعهدها والاحتفاظ بالبقية الباقية من ذمائها حتى قيض الله لها من ابناء هذا الجيل فريقاً شعروا بالواجب فعمدوا الى بعثها من مرقدها ونفثوا في روعها روح الحياة الجديدة فنهضت من كبوتها واخذت تنفض عنها غبار الهجر وصدأ الاهمال ولكن طول الفترة اعوز القائمين بهذا العبء الثقيل الى اعمال جمة لا يمكن ان تنال الا اذا تضافرت الامة بأسرها على تذليل كل صعب وازالة كل عقبة في سبيل الغاية المنشودة ٠ وهذا امر بعيد المنال لغلبة الجهل في ابناء الأمة واضمحلال الاواصر الواصلة بينهم وبين اللغة واختلاف اهوائهم ومنازعهم ، الا ان هذا لا يجب ان يكون داعياً الى الاستسلام الى اليأس ولا حاملاً على الاخلاد الى الدعة والخمول ٠

ويلوح لي ان خير وسيلة تضمن انعاش اللغة وسيرها مع مدنية العصر الحاضر وتحفظ جوهرها من تسرب الخلل اليه ٠ ان تنقح من شائبة العجمة والركاكة وان لا يصار الى الدخيل او العامي الا عند العجز عما يرادفها من الفصيح لان التسامح في استعمالها يفضي الى افساد اللغة وتكثيرها بغير فائدة والتباس الفصيح بغيره وانتشار الفوضى فيها والدليل على ما ذكرناه من وجوه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منها ان الكلمة اذا كانت موضوعة لمعنى بالوضع العربي ثم تداولت العامة كلمة أخرى تدل على ذلك المعنى؛ فاما ان نقول بجواز اللفظين معاً فيكثر سواد المترادفات وهذا ما يأباه البلغاء في هذا العصر و يسعون للتخلص منه ، واما ان نهمل العربي العريق في العربية، ونحتفظ بالعامي، وهذا لا يرتضيه من ضرب بسهم في العلم لانه يستلزم ان يزال المعنى الصحيح من المعاجم والكتب حذراً من اللبس واستعمال المهجور وان يبطل الاحتجاج به و ينقض كل ما بني عليه من ضروب البلاغة والمحسنات في النظم والنثر و يستلزم فوق ما تقدم ان يتعدد الوضع في كل مصر وإقليم . ومثال ذلك ان لفظ البلبل مثلاً يطلق في عرف الدمشقيين على الدوامة وهي الفلكة يلف عليها الصبي خيطاً ثم يطرحها على الارض فتدور واهل المعرة يسمونها (الصياح) فاذا قلنا بجواز استعمال الألفاظ الثلاثة وقعنا في الترادف وتعدد الوضع ، وان قلنا بجواز الاول دون الاخيرين او الثالث دون الاولين فهو تحكم محض وترجيح بلا مرجح ويترتب عليه زيادة معنى آخر للبلبل والصياح لم يكن لهما في اصل الوضع ولا أثبت في مظانه من كتب اللغة حتى يعلمه غير الدمشقي والمعري مثلاً فلم يبق غير التمسك بالفصيح الصحيح لعدم ترتب شيء من المفاسد المذكورة عليه ، ويقال مثل هذا في الدخيل و يزاد عليه ايثار الأعجمي على العربي لغير علة ظاهرة ولا حكمة مدركة .

ومنها اننا اذا أضفنا هذه الألفاظ الجديدة الى ما في المعاجم اختلط الحابل بالنابل وعسر تمييز الفصيح من غيره وما عربته او وضعته العرب مما عرب به او وضعه غيرها وهذا لا يستلزم ان يكون الكلام فصيحاً او بليغاً لفقد شرط الفصاحة والبلاغة فيه وهو الوضع العربي ولو أردنا ان نشير عند كل لفظ الى واضعه لخرج الامر عن حد الإحاطة به .

ومنها ان الشعر القديم مادة اللغة وأساسها ومحكها وقسطاسها ولوتسامحنا باستعمال الدخيل واخيه لأدى ذلك بعد قليل الى هجر اللغة القديمة والاستغناء عنها باللغة الجديدة لان النفوس نزاعة الى إطراح ما فيه كلفة والاعتصام بالقريب السهل وهذا يفضي الى محو اللغة القديمة والقضاء على الآداب العربية بجملتها لانها مبنية على هذا الأساس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهنا وجوه كثيرة ضربنا صفحاً عن ايرادها خشية السآمة والملل .

ورب معترض يقول ان هذا التكليف يستلزم استعمال الكلمات الوحشية ويكون عقبةً كؤوداً في سبيل العلم والأدب لان الكاتب والمؤلف مثلاً اذا حاول العدول عن كلمة أعجمية لا يعرف مرادفها من العربي اضطر الى وقت طويل وعمل جزيل حتى يجد ضالته وهذا يحول بينه وبين إتمام ما شرع فيه او يؤخره عنه وربما لا يجد بغيته على الرغم مما يصرفه من الجهد في البحث والتنقيب .

والجواب على ذلك :

اولاً ان الوحشة التي نجدها في بعض الكلمات لم تجئ الا من طول هجرها وانقطاع المواصلة بيننا وبينها ولو تداولتها الألسن ردحاً من الزمن لزالت عنها تلك الوحشة وأصبحت خفيفة الوقع على اللسان والسمع والدليل على هذا ان الكلمات التي أرشد اليها هذا المجمع الموقر مثل الجواز والفسح والمرأب والمحارة والران والمعطف والكمة والبيان ونحوها كانت تعد وحشية غريبة فلما صقلتها الألسن والاقلام مدة يسيرة أنست بها النفوس اكثر من مرادفاتها الأعجمية وما إخال ان احداً يقول ان لفظ البسابورط والباص والكاراج والميقروفون والطمانات والبلدرين والقالبق والعلم وخبر أخف وقعاً ولا اكثر انساً ولا اوفر رشاقة من لفظ الجواز والفسح وما عطف عليهما .

ثانياً : اننا لانذكر ان فيما اسلفنا شيئاً من الحرج . ولكن البناء على اساس صحيح مهما كان فيه من الكلفة خير من البناء على اساس فاسد لا كلفة فيه لأن البناء على الفاسد فاسد .

ثالثاً : ان الباحث لايجب عليه ان يجد بل يجب عليه ان يبحث . فاذا لم يجد حاجته او ما يقارب بها لجأ الى الدخيل او العامي ونزل فيهما على حكم الضرورة ولا ينسى للغة ان تستعيد مجدها الا اذا كثر الباحثون . ولو اتيح لهذه الامة ان يكثر فيها المتعلمون الشاعرون بمكانة اللغة في المجتمع البشري وينهجوا في احيائها على قاعدة توزيع الاعمال فينقب الطبيب مثلاً عن اسماء العلل والامراض والمفردات والتاجر عما يحتاج اليه في تجارته والصانع عما يختص بحرفته والعالم والمؤلف والشاعر والكاتب عما يفتقر اليه كل مهم لنهضت في وقت قصير الى مصاف اللغات الحية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الايام جعلت كلامنا كلاً على اخيه يتوقع النجح منه حتى اصبحنا كلنا عالة على غيرنا ولم تدع لنا بارقة من أمل الا في هذا المجمع الموقر .

على اننا اذا نظرنا الى سير اللغة في البلاد السورية بعد جلاء الترك عنها وما قطعته من الاشواط البعيدة في بضع سنين رأينا امامنا فسحة من الآمال تبشرنا بمستقبل زاهر ولهذا لا يجدر بنا ان نفتر عن العمل ولا ان نحتقر شيئاً منه مهما كان قليلاً فان السيل العظيم يتألف من قطرات صغيرة والنخلة تخرج من نواة ، ورب همة احيت أمة .